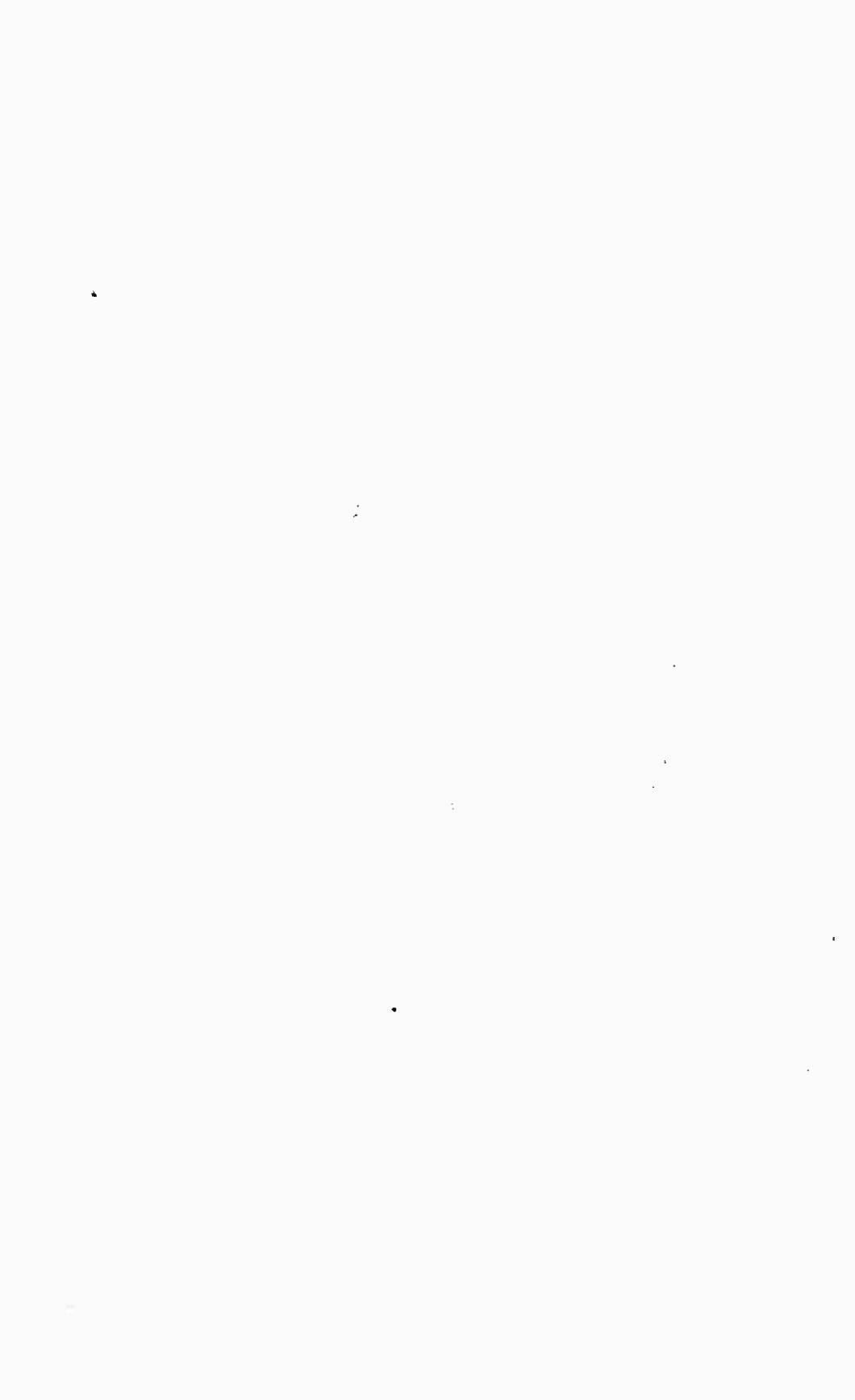


الجزء الأول

من العصر الجاهلى إلى عصور الانحطاط

هذا الجزء ، ألقى فى جامعة دمشق شتاء عام
١٩٦٠ وطبع بالقاهرة عام ١٩٦١ ثم أُلقيتْ
خلاصته على طلاب معهد البحوث والدراسات
العربية العالية، عام ١٩٦٧، توطئة لمحاضرات
الجزء الثانى : قيم جديدة لأدبنا المعاصر .



مقدمة

محاولة
ومدخل

هذه محاولة متواضعة لتحرير الدرس الأدبي من بعض قيم ومقاييس خاطئة ، احتكمت فيه زماناً وسيطرت ، ولا تزال تسيطر ، على فهمنا لتراثنا الأدبي ، وتوجه ذوقنا له وإدراكنا لوظيفته في الحياة ومكانه منها .

وقضيتنا الأولى والكبرى ، هي الفن والحياة . وتجربتنا التاريخية دلّت على ما بينهما من صلة وثيقة حتمية ، فحيثما كانت الحياة قوية زاهرة ، كان الأدب طليعتها وقائدها وصورتها ، وحيثما تخلفت وركدت ، كانت محتتها بالأدب تعادل محنته بها .

وعلى أساس هذه الحقيقة ، ارتدتُ التاريخ الأدبي في مجاله الدراسي وواقعه التاريخي . فبدأ لي أن الأحكام الأدبية والمقاييس النقدية التي خلفها لنا القدامى من مؤرخي الأدب العربي ونقاده تعرضت :

لمؤثرات ذوقية ، قضت بها ظروف عصرهم ، وغلب عليها مزاج مجتمعهم . ومؤثرات اجتماعية واقتصادية ، من صراع العناصر وصدام المذاهب والطبقات .. ومؤثرات سياسية ، تنازعت فيها السلطانَ قبائلُ وأسر وشعوب ؛ وتفاوتت بينها نظم الحكم وأوضاعه .

ومؤثرات عقلية ، طرأ عليها ما طرأ من ثقافات شتى ، وحملت إليها الأجناس والشعوب التي تعربت أو اتصلت بالعرب ، ميراثها الحضاري والفكري .

كل هذا ، فيما نؤمن ؛ هو الذي وجهَ الفن العربي من قديمه إلى اليوم . وكل هذا ، فيما نعتقد ، هو الذي قرر تلك الأحكام والقيم التي لم تكن سوى أصداء ونتائج ؛ لذلك الواقع المادي المعنوي . .

وقد حدد أولئك القدماء للشعراء منازلهم وأقدارهم ، واختاروا نماذج من الشعر رأوها أجود ما قيل في بابها . ومرت عصور وأدهار ، وما يزال الشعراء حيث وضعهم الأقدمون ، وما تزال النماذج التي اختاروها ، موضع عنايتنا وتقديرنا واهتمامنا ، وما تزال أحكامهم ومقاييسهم باقية فينا ، نعيدها ونكررها ونُدور في نطاقها .

وكأنما قُضِيَ علينا أن نستعير عقليتهم وأذواقهم ، لفهم تراثنا وندوقه .
ومنذ اثني عشر قرناً ، رفض « ابن قتيبة : ٢٧٦ هـ » استعارة ذوق
السابقين فقال : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيلَ من
قلد أو استحسّن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة
لتقدمه ، وإلى المتأخر بين الاحتقار لتأخره . . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة
على زمن دون زمن ، ولا خصَّ به قوماً دون قوم ؛ بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً
بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره » (١) .

وفي القرن السادس الهجري ضجح « ابن بسام » في أقصى المغرب من التقليد
والحمود ، واستعارة ذوق بيئة أخرى غير بيئته فقال :

« إلا أن أهل هذا الأفق ، أبوا إلا مبايعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم
المعتادة رجوع الحديث إلى "قناة" حتى لو نطق بتلك الآفاق غراب ، أو طنَّ
بأقصى الشام والعراق ذباب ، لحدَّوا على هذا صنماً ، وتلاوا ذلك كتاباً محكماً !
وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصَّ أهل المشرق بالإحسان ..؟
والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور . وعزيز على الفضل
أن يُنكَّر ، تقدم به الزمان أو تأخر . ولحي الله قولهم : "الفضل للمقدم" فكم دفن
من إحسان وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لصاع
علم كثير ، وذهب أدب غزير » (٢) .

وابن قتيبة وابن بسام ، قد كانا قريبي عهدٍ بالقوم نسبياً ، أفلسنا أولى منهما
بمثل هذا التحرر الفكري والذوقي ؟

وهل ترى يليق بنا أن يجمد ذوقنا عند الموروث من قيم نقدية ، لرجال فصلتنا
عنهم قرون ذات عدد ، جدَّ فيها على ثقافتنا وأذواقنا ما جد ؟

وقدأى النقاد ، عاشوا في عصور ليست أزهى عصور العربية ، وفي مجتمعات
متصدعة مريضة غالباً ، وقد نجونا نحن من أكثر الأوضاع المريضة ، لكن لا تزال

(١) الشعر والشعراء ٦/١ ط الحايي .

(٢) الذخيرة : ٢/١ ، ٣ ط جامعة القاهرة .

رواسب منها تحتكم في فهمنا لتاريخنا وذوقنا لأدبنا ، بل لا تزال دراستنا لأدب العربية الذى هو نبض وجداننا المشترك ومناطق وحدتنا الذوقية ، تدور غالباً في النطاق الذى ورثناه من عصور خلّت .

والعربية قد كانت لنا من قديم أكثر مما كانت لغة أخرى للناطقين بها ؛ وذلك بحكم اتصال العربية ، لغة المعجزة الدينية ، بالعقيدة التى نعرف سلطانها على الوجدان ، ومكانها فى الصراع التاريخى المرير ، بين العربية وأعدائها : من شعوبية وتسر ، وصليبية وصهيونية واستعمار . .

ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية ، بعد أن انقضى عهد الاستعمار العسكرى ؛ ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة لأن وجودنا الكريم لا يحميه إلا صون مقوماته المعنوية والمادية .

وهنا يأخذ الأدب دوره فى نضالنا الجديد ، حارساً لمعنوياتنا . وكما لاذ أسلافنا باستنقاذ تراث العربية الأدبى والفكرى فى صراعهم مع الشعوبية ؛ وكما حموا به العربية ديناً ودولة فى مهب الإغصار التترى والغزو الصليبي ؛ نلوذ به اليوم لحماية وجودنا ، فى مهب تيارات الغزو الفكرى المشحونة بسموم لصوص الحرية وأعداء البشر.

ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل فى المعركة ؛ ما لم نتخلص من الرواسب التى شوهت تراثنا الأدبى ؛ وما لم ننجز فى ذوقنا له من سيطرة الأذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط ؛ بل لن نقوم للأدب العربى فىنا قائمة ما لم نهدم الأسوار التى عزلت أبناءنا ، وأجيالاً قبلهم ، عن أجمل ما لنا من تراث فنى ؛ ولم نمنح الظلال التى حجبت عنهم بهاء ؛ حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان ؛ وأشخاص بذواتهم ، من الشعراء والكتاب ، يدينون بشهرتهم وذبيوع صيتهم لتعلقهم بركاب حكام كانوا فى عزلة عن الشعوب ؛ وإلى تمرغهم فوق « بلاط » ذوى السلطة ، من كانوا ، ولو كان هذا البلاط يكتم أنفاس الرعايا المحكومين ويهدر ما لهم من حقوق وحرمان .

وإلى اليوم ، ما تزال تفرض تلك النماذج وأولئك الشعراء والكتاب على أبنائنا ، ثم نزيد الطين بلة فنجعلهم يتذوقون النصوص المختارة بذوق تقليدى موروث ؛

ويزنون الشعراء والكتاب بموازين انحدرت إلينا من نقاد عاشوا تحت ضغط الحكم الاستبدادى ، وتنفسوا فى جوه .

* * *

وهذه المحاولة تكشف عن أمثلة من انحراف الفهم لثرائنا الأدبى ؛ وضلال المقاييس فى ذوقه ونقده وتاريخه ؛ وتلتبس له قيماً أصيلة محررة من الشوائب الدخيلة والرواسب المتخلفة .

والمحاولة تحمل عنوان « قيم جديدة » .

ولست أعنى بالجدّة هنا، أنى أضيف إلى أدبنا قيماً لم يعرفها ثرائنا ، أو أحمل عليه منها ما لا عهد للبيئة العربية به فى قديمها الأصيل ، وإنما الذى أعنيه هو استخلاص جديدٍ من القيم غابت عنم أرخوا لأدبنا ونقدوه . فهى جديدة بالنسبة إلى ما لا نزال نردده من أحكامهم وموازينهم ، وإن تكن فى الواقع مستندة إلى ما يقدمه إلينا ثرائنا . حين ننظر فيه نظرة متحررة من أذواق نقاد سلفوا .

ولست أدعى أنى بهذه المحاولة وفيت بما يجب للموضوع من إحاطة وشمول ؛ ولا أزعم لها القدرة على تحرير أدبنا من أثقال هاتيك الرواسب ؛ فالأمر أخطر وأوسع وأعظم من أن ينهض به جهد فرد . وإنما الذى أرجوه أن ألفت إلى خطر الموضوع ، وأن أخطو فى الطريق الشاق الطويل خطوة تتجه نحو الغاية البعيدة التى أعرف — قبل سوى — أنها لن تدرك إلا بكفاح متصل ، وجهود متآزرة ، يبذلها المؤمنون برسالة الأدب فىنا ، المقدرون لحاجتنا إلى دراسة جديدة لثرائنا ، بوعى جديد وفكر حر ، يلائم كرامتنا العقلية ومستوانا الفنى ، ونظرتنا الجادة المُكبِّرة لمكان الأدب فى الحياة . . .

وأرجو أن يستقبل قومى هذه المحاولة التى أقدمها . دعوة ومثالاً ، بشيء من رحابة الصدر سعة الأفق . . .

وبالله التوفيق .

عائشة عبد الرحمن

مدخل

وأنا أشتغل بهذه المحاولة في الجامعة من زمن ؛ أريد بها أن نستخلص لأدبنا العربي قima جديدة نابعة من تراثنا الأصيل ؛ دون التزام بالقيم وبالأحكام التي ذهب إليها نقاد نظروا في هذا التراث بذوق عصورهم ، وحكموا عليه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ؛ ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلاً بعد جيل ، وصار لها من حرمة القدم وطول العمر وسلطان الإلف ، ما أضفى عليها مهابةً ترد عنها محاولات التجديد ؛ وتحميها ممن يجرؤون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة وعوى مرهف .

ونقطة الانطلاق في هذه المحاولة ، هي التفرقة بين تراثنا الأدبي وبين أحكام مؤرخيه وآراء ناقديه : نقصد بالتراث النصوص الأدبية التي قاومت عواذى الزمن ووصلت إلى أيدينا ، وهي مرجعنا الأول : إليها نحكم ، ومنها نستخلص القيم ، وبها نفصل فيما لعله يشتجر من خلاف بيننا وبين النقاد . ولا تناقض هنا بين اطمئناننا لما اعتمدته علماء الشعر الأقدمون من تراث العربية الأدبي ، وبين عدم التزامنا بما لم فيه من آراء وأحكام ومقاييس نقدية ، فهؤلاء الخبراء حجة في المادة الأدبية من نصوص وأخبار ، وهم هم الذين جمعوا تراثنا الأدبي وحفظوه ودونوه . أما إذا جاوزنا النص الأدبي والخبر التاريخي ؛ مما هو مادة الدرس ، إلى التذوق والحكم والتقدير والتقويم ، فإن الموقف يختلف ، لأن مرجعه هنا ذوق العصر وشخصية الناقد وعقلية البيئة ومزاجها .

ونعرف أن التأليف في دراسة الشعر ونقده ، قد بدأ حوالى منتصف القرن الثاني للهجرة ؛ في ظل نظم سياسية واجتماعية غير تلك التي كانت للعرب في الجاهلية أو صدر الإسلام . وكان مركز الحركة — أول ما كان — في بغداد عاصمة العباسيين ، التي كانت تصب فيها روافد وتيارات وافدة من شرق وغرب ، مؤثرة في مزاجها العام وذوقها الأدبي بمؤثرات طارئة ، منها الغريب الدخيل الذي حملته

ومكنت له من المجتمع الإسلامى ، شعوبية" غازية . وذلك ما يجب أن يُحسَب له كل حساب ، فى فهم قيمهم الأدبية ووزنها .

• • •

ويتجه بنا المنهج إلى درس النص الأدبى متصلاً بالحياة ، واستقراء المادة التاريخية فى ضوء واقعها ، ثم عرض الدلالات والقيم التى تعطيها ، على القيم النقدية الموروثة ، دون أن تغيب عنا المؤثرات الموجهة لها .

وما من شك فى أننى حين أستقرئ تراثنا ، أتأثر كذلك فيما أختار منه بدوق عصرى وطابع شخصيتى ومزاجى ، ومذهبي فى الفن والحياة ، لكنى حريصة تماماً على ألا أخرج بنص ما عن واقعه وبيئته ، حريصة على أن أصغى فيه إلى نبض عصره ومجتمعه . ومن هنا يكون الجهد فى محاولتى ، هو موقفى لى من تراثنا ، أجلو منه ما قد يكون النقاد والمؤرخون ألقوا به فى منطقة الظل ، متأثرة بعصرى ومزاجى فيما ألتقط من نبض حياة سجله تراثنا الأدبى ، ولم يصنع لىه أولئك السلف ، لأنه لا يستجيب لمزاج عصورهم وأنماط شخصياتهم وأوضاع مجتمعاتهم .

أدبنا والحياة في العصر الجاهلي

— قديمنا الأصل

— بيئات الشعر الجاهلي :

١ — شاعر القبيلة

٢ — الشعراء الصعاليك

٣ — شعراء البلاط

فديمننا الأصيل

« . . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ،
وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما
وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل
من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من
ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » .
ابن سلام
« طبقات الشعراء »

حين أحاول أن أستحدث قيمة جديدة للأدب العربي ، أجد من الضروري
أن أعود إلى قديم لنا بعيد ، لكي أستمد لأدبنا مفهوماً تابعاً من أصوله النقية ،
وقيماً حرة لا ينكرها أدب العربية في جوهره الصافي وذوقه الأصيل . .

كثير منا يشفقون من مثل هذه العودة ، ويريدون لنا — بحسن نية — ألا نشغل
بماض عن حاضر ، وألا ننصرف عن حياتنا هذه التي نحياها ، إلى حياة قديمة
سلفت وانقضت .

ولست أقول هنا إن مثل هذا المذهب إثم وخطيئة ، فليس المجال مجال وعظ
خلقى ، لكننى أقول إن وعينا لذاتنا يقتضى حتماً أن نعرف ماضينا ، وإن حياتنا
اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أصولها . وإذا كانت دراسة التاريخ القديم
لأمة ، ضرورة لا يهون أن نتصور إمكان الاستغناء عنها ، فكذلك الأدب ،
لا يجزئ واع على الزعم بإمكان الاستغناء عن معرفة قديمنا منه ، لا لكونه تسجيلاً
وجدانياً لتاريخنا فحسب ، ولكن — كذلك — لما له من أثر في تكوين ذوقنا
ووجداننا ، على مر العصور وتتابع الأجيال .

وقانون الوراثة هنا أشد سيطرة واحتكاماً منه في أى ميراث آخر ، إذ الأمر
فيه متصل بالشخصية الوجدانية التي تتكون لأمة على مر الزمان وتلقاها الأجيال

منها متعاقبة . وما ذوقنا اليوم إلا خلاصة لمؤثرات شتى خضع لها أجدادنا ، وأضاف إليها كل جيل منهم ما استحدث . دون أن يفات من ميراث له . أخذه تلقائياً أو بالتلقين ، من آباء له وأجداد .

وقد يبدو لمن يتعجلون النظر ويرتجلون الحكم . أن ذوقنا العصري بعيد كل البعد عن ذوق جيل مضى ؛ لكن النظرة المتأنية الفاحصة ، لا تلبث أن تهتدى إلى ما وراء الظاهر ، من عنصر موروث في ذوقنا ، يصله بأقدم ما كان لأسلافنا من خواص ذوقية . وهذه قضية فرغ العلم من إثباتها بحيث لا أجد ضرورة إلى الإطالة في التماس الأدلة والشواهد عليها ، والحياة أمامنا تقدم لنا في كل وقت وفي كل بيئة . نماذج من الناس ، يعيشون في ظروف واحدة ، ويخضعون لمؤثرات عصرية مماثلة ، ثم يختلف قوم عن قوم ، أثراً لاختلاف ميراث احتكم في وجدان كل جماعة . وترك أثره الواضح في الشخصية القومية والمزاج العام .

هى إذن رجعة لا بد منها إلى أدبنا الأول ، وعودة لا مفر منها إلى قديمنا الأصيل ، نرد بها على أدبنا ما سلبته إياه عصور الانحطاط والضعف ، ونلتمس لمزاجنا الأدبي الحاضر ميراثه النقي ، ونهتدى به إلى الشواثب الدخيلة التي جمّدت ذوقنا الفني لأدبنا ، وأصابته مناهج الدرس الأدبي بما يشبه العقم .

• • •

ونقطة البدء يجب أن ترجع إلى العصر الجاهلى . أو بتحديد أدق . إلى القرنين الأخيرين للجاهلية . وهى الفترة التى استبقى الزمن بعض تراثها الأدبى . ولن نطيل الوقوف هنا عند مسألة الشك فى هذا الذى استنفذ من شعرنا القديم ، فهما يكن الرواة قد غيروا منه أو أضافوا إليه لسبب أو لآخر . يبقى فى جملته غير متهم بالزيف أو الوضع . والقدر الذى حُمِّل عليه زوراً وأضيف إليه انتحالاً ، كان من مهارة التقليد بحيث فات خبراء الشعر الأقدمين — من أمثال خلف الأحمر . وأبى عبيدة ، والأصمعى والمفضل الضبى وابن سلام وأبى عمرو بن العلاء وأبى زيد القرشى ؛ ثم ابن المعتز وأبى تمام وابن دريد والسكرى — أن يميزوه ؛ فاكسب بهذه المهارة فى التقليد صفة التمثيل لشعر الجاهلى ، كما اعتمده أقرب الناس عهداً به .

وعملية الجمع والتدوين ، قد مرت بمراحل من التصفية والاختبار على أيدي نَقَات أمناء ، وعلماء خبراء^(١) ؛ كان فيهم من عاصر أحفاد الشعراء الجاهليين وشد رحاله إلى مواطنهم بالبادية التي ظلت — لفترة طويلة — بعيدة نسبياً عن المؤثرات الطارئة ، وفي شبه عزلة عن التيارات السياسية والمذهبية التي عبثت بالشعر ما عبثت .

وربما كان من المجدي أن نضيف هنا ملحظاً لم يأخذ حظه من الاعتبار عند من أنكروا الشعر الجاهلي ، وهو أن حركة الجمع والتدوين في القرن الثاني قد قامت لدواعٍ دينية وقومية بالغة الخطر ، أضفت عليها حرمة كانت جديرة بأن تصون تلك الحركة إلى حد كبير ، من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة ، وتخضعها لرقابة دقيقة حازمة ، كشفت عن أكثر الزائف ، وميزت رواة عرفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجردت آخرين اشتبهوا بالكذب والتهاون والوضع .

فبقدر الحاجة إلى هذا التراث ، كانت جدية عملية الرواية وحرمتها وفحص المرويات وامتحان الرواة والأعراب ، في حذر بالغ ، وحرص شديد^(٢) .

ويكنى ليبيان ما كان لرواية الشعر من حرمة أن نقرأ أن « أبا عمرو بن العلاء » حرق مروياته جميعاً حين اكتشف فيها بيتاً واحداً مزوراً ؛ وظل ما عاش يستغفر ويتوب ! »

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ٧ ، ٩ ط بريل .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء . ص ٥ ط أوربا (بريل) وانظر معها صفحات ٧ ، ٩ ، ١٤

٢٧ من أمالي اليزيدي ط الهند .

بيئات الشعر الجاهلى

تظل دراستنا للشعر الجاهلى غير مجدية ، ما لم نميز بين بيئاته الاجتماعية والفنية . ومؤرخو الأدب عندنا ، قد مضوا على دراسة الأدب عصوراً زمنية تتبع العصور السياسية وتسير فى فلكها . فبدأ العصر الأموى للأدب بتولى الأسرة الأموية الحكم سنة ٤٠ للهجرة ، وينتهى بسقوطها سنة ١٣٢ هـ لبدأ عصر الأدب العباسى مع دولة بنى العباس ، ويظل معها حتى تسقط بغداد بين أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ ، وهكذا .

وكشف الدرس المنهجى عن أخطاء هذا التقسيم ، فليست الحياة أحداثاً سياسية فحسب، ليسير الأدب معها بمعزل عن العوامل الدينية والاقتصادية ، والأوضاع الاجتماعية والمستويات الفكرية والحضارية . وإذا جاز أن يبدأ عصر سياسى فى يوم بذاته ، فالمزاج الأدبى والوجدان الفنى لا يتغير بين يوم وليلة . ثم إن عصرأ واحداً كالعصر العباسى أمثلاً ، يمتد زماناً فيستغرق أكثر من خمسة قرون ، ويمتد مكاناً من أقصى المشرق الآسيوى إلى المغرب الإفريقى ، وطبيعة الحياة تأبى أن تأخذ أدب هذا العصر جملةً ، فنصدر عليه أحكاماً عامة، لا نميز فيها بين بيئة وأخرى .

والأقدمون أنفسهم قد اتقوا هذا المأخذ فى تصنيفهم لطبقات الشعراء . فكان منهم من وزع الشعراء على أقاليمهم ، كالثعالبى فى (يتيمة الدهر) والعماد الأصفانى فى (الخريدة) وابن بسام فى (الذخيرة) . . .

وبقينا مع ذلك ندرس الأدب عصوراً سياسية زمنية ، تهدر العوامل الدينية والاقتصادية والاجتماعية، وتغض عن العوامل الإقليمية والمستويات الحضارية، حتى كان « أستاذنا أمين الخولى » هو الذى حررنا من ضيق الأفق وسطحي تناول وجانبى الرؤية، ووجهنا إلى دراسة الأدب والفن تفسيراً وجدانياً للحياة بكل أبعادها^(١).

* * *

(١) أمين الخولى : (الأدب المصرى) ط دار المعارف بمصر .

وقد يبدو أدب العصر الجاهلي وحدة زمانية ومكانية ، من حيث لم يصل إلينا منه إلا ما بقى من تراث القرنين الأخيرين قبل الإسلام ولم تكن العربية قد خرجت من جزيرتها ، وخالطت الشعوب التي تعربت بعد الفتح الإسلامية .

ومع ذلك ، استطاع دارسون محدثون أن يميزوا في الأدب الجاهلي بين بيئات البدو والحضر ، وعلى هذا التمييز أدار المستشرق « نالينو » ^(١) تقسيمه لبيئات الشعراء الجاهليين ، فهم عنده شعراء البادية ، وشعراء الحضر ومعهم شعراء الحيرة وغسان .

و « محمد بن سلام » قد التفت إلى هذا الملحظ من عصر مبكر ، فجعل شعراء القرى العربية — الحواضر : مكة ويثرب والطائف والبحرين — طبقة خاصة ؛ في كتابه الرائد (طبقات الشعراء) .

وكنا في الدراسة الجامعية ، على هذا التقسيم زمنياً . حتى بدا لنا عُسْرُ التمييز بين حضر وبدو ، في العصر الجاهلي الذي هو بطبيعته عصر بدواة ! وشقَّ علينا أن نقنع ، فضلاً عن أن نقنع طلابنا ، بفوارق من خشونة ورقة ، وجفاوة ولين ، وإن الشاعر من بدو أو حضر ليتغزل أو يرثي فيكاد يذوب من رقة ، ويفخر أو يتوعد أو يهجو فيكاد يقذف بالصخر ! وإن القصيدة الواحدة لتتفاوت بين جزالة وخشونة ويسر ولين ، تبعاً لاختلاف الموقف الشعري . وبحسبنا أن نذكر تفاوت أبيات الغزل في (معلقة امرئ القيس) عن وصفه لليل والفرس ، وأبيات الناقة في (معلقة طرفة) عن خواطره وتأملاته في الموت والحياة ، وأبيات (معلقة الحارث بن حلزة) في موقف الارتحال ، عن أبياته في موقف الحصومة بين بكر وتغلب . . .

و « النابغة الذبياني » عاش في قصور المناذرة بالحيرة ، حيث الحياة المترفة الناعمة في أعلى مستوى عرفته بيئة حضرية لعرب الجاهلية . . .

فاسمع ما قال « أبو عبيدة » في شعر هذا النابغة :

« إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأنيثه ولينه . وإن شئت قلت :

(١) في محاضراته بالجامعة المصرية في تاريخ الأدب العربي ، وقد جمعها ابنته المستشرقة السيدة « مريم نالينو » ونشرتها دار المعارف بالقاهرة .

صخرة" لو رُدِّيت بها الجبال لأزالتها" (١) .

لقد كنا نخرج من جهد المقارنة بين شعر البدو وشعر الحضرة في الجاهلية ،
بعطاء قليل لا يزيد على بعض ظواهر شكلية وفروق لفظية وأسلوبية لا تعطى قِما
فنية أو خصائص جوهرية ذات بال .

لأننا نقيس ما بين البداوة والحضارة بمفهوم عصرنا ، فننسى أن الشاعر الجاهلي
في مكة أو يثرب والطائف . لم يكن يركب سيارة ويستضيء بغاز أو كهرباء ،
حين كان معاصره في صميم البادية ، يركب الناقة ويوقد النار ! !

* * *

واتجهت محاولتي في بيئات الشعر الجاهلي إلى التمييز بين : شاعر القبيلة ،
وشاعر البلاط ، والشعراء الصعاليك . فبدت لي فروق جوهرية في وظيفة الشعر
ومكان الشاعر ، وفروق فنية ذات خطر ، في ذاتية الشاعر الفردية والجماعية ، وفي
مكانته ورسالته ، وفي فنون الشعر تروج في بيئة دون أخرى ، مؤكدة ما بين الفن
والحياة من حتمى الصلات .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ١/ ١٦٨ ط المعارف .

شاعر القبيلة

قال نقاد : « الشعر تجارة العرب »

ابن رشيق ، العملة

ويقول تراثنا : الشعر في المجتمع العربي

الأصيل سيادة وقيادة .

« الشعر تجارة العرب » .

كلمة تناقلها النقاد من قديم ، حتى وصلت إلى « ابن رشيق » في القرن الخامس الهجري ، فسجلها في كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) (١) قيمة نقدية مقررة ، يمكن أن تفسر لنا كثيراً من الأحكام والمقاييس التي أقاموا عليها وزنهم للشعر وتصرفهم في أقدار الشعراء ومراتبهم .

كما يمكن أن تفسر لنا كذلك اضطراب مقاييسهم وتناقض أحكامهم ، وبخاصة في الشعر الجاهلي الذي لم يسعفهم على ما استقر في أذهانهم وأذواقهم من مفهوم للأدب ووظيفته .

وأرجئُ بيان هذا كله حتى نحتكم إلى تراثنا من الأدب الجاهلي ، لئرى هل كان الشعر حقاً تجارة العرب ؟ وهل أراد المجتمع العربي لشعرائه أن يجعلوا الشعر بضاعة ، ويستفروغوه في المدح ؟

وإذ نمضي إلى نقطة البدء مطمئنين إلى ما لدينا من تراث أدبي ، نرى المجتمع العربي في ذلك الزمن البعيد قد حدد للشعر مهمته ، وهي التعبير عن الجماعة ، كما حدد للشاعر مكانه حين وكل إليه القيادة المعنوية لقومه . وبمقدار ما كان لهذه المهمة من جلال وخطر ، كانت القبيلة تحتفل بنبوغ شاعر فيها ، وتتقبل التهنئة فيه ، وتعدّه ذخيرة عزيزة وقوة لها (٢) .

كان الشعر إذ ذاك سلاحاً من أمضى الأسلحة في حياة لا مكان فيها إلا للقوى الغالب .

وكان اعتزاز القبيلة بشاعرها أكبر من اعتزازها بالفارس الذي يحمي الحمى بسيفه . وهو وضع قضت به ظروف الحياة في ذلك العهد الجاهلي ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة وجدانية ، تبث في أبنائها روح المروءة والنجدة وإباء الضيم ، وتحذوهم في صراعها من أجل الوجود والبقاء . وهذا يفسر لنا ما نقلته إلينا

(١) ابن رشيق : العمدة - ٢١/١ ط هندية .

(٢) اقرأ باب (احتفاء القبائل بشعرائها) في العمدة لابن رشيق : ٢٧/١ .

الأخبار من اهتمام القبيلة برواية شعر الشعراء منها والدعاية له . وحرصها على أن تلقنه صغارها ، وتردده في المحافل والجامع وتذهب به إلى الأسواق العامة والمواسم الجامعة ، لتنشده على مسمع الوفود المحتشدة من مختلف القبائل^(١) .

ولقد بلغ من شغف تغلب بقصيدة شاعرها الفارس « عمرو بن كلثوم » أن ظلت لدى أجيال ترويتها دون سأم أو ملالة ، وتحفظها أبناءها استثارة لحميتهم وإذكاء لنخوتهم ، حتى قال الشاعر من بكر^(٢) :

ألهى بنى تغلب عن كل مكreme قصيدة^٢ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا لمرجالٍ ليفخر غير مسؤول !

وكان الشاعر هو الذى يندب للدفاع عن حق الجماعة في مواقف الخصومة والنزاع . ويتولى عرض قضيتها في مجالس الحكم والقضاء .

وقصة الخصومة بين بكر وتغلب معروفة . حين تدخل « عمرو بن هند » للصلح بينهما . وأخذ من الحين رهناً . من كل حى مائة غلام ، ليكف بعضهم عن بعض . ثم هاج الشر بينهم مرة أخرى . واختصموا إلى « عمرو بن هند » الذى بدا منه التحيز لبنى تغلب ، ولم يكتم تحيزه . بل قال لمخاميه « النعمان بن ثعلبة اليشكرى » مخذلاً : يا أصم جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم وهم يفخرون عليك ؟ !

فقال النعمان : وعلى من أظلت السماء كلها يفخرون ثم لا ينكر ذلك !

وكره الملك جوابه . وعاد يسأله : يا نعمان ، أيسرك أنى أبوك ؟

فرد عليه النعمان — وقد غاظه تحيزه لبنى تغلب — ردًا جارحاً .

قالوا فغضب عمرو بن هند غضباً شديداً حتى هم بالنعمان ، لولا أن قام شاعر بكر « الحارث بن حلزة اليشكرى » فارتجل قصيدته المشهورة :

(١) اقرأ في هذا كتاب « أسواق العرب في الجاهلية والإسلام » للأستاذ سعيد الأفغانى . ص ٢٩٢

وما بعدها — ط ٢ دمشق .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء — ٢٣٦/١ ، ط المعارف .

أَذْنَتْنَا بِبَيِّنَتِهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاءُ !
 وكان الملك قد أمر فجعل سترًا بينه وبين « الحارث » لوضح به . فلما
 مضى في إنشاده ، لم يزل عمرو يقول : أدنوه ، أدنوه . . حتى أمر بطرح الستر
 وأجلسه قريبًا منه ، ثم لم يملك إلا أن ينصف بكرًا على ما بدا أول الأمر من
 تحيزه لتغلب^(١) .

وقد بدأ الشاعر يدفع عن قومه ما اتهمتهم به تغلب من ممالأة عدو لهم ،
 وينكر أن تؤخذ بكر بذنب غيرها :

وَأَنَا عَنْ الْأَرَاقِمِ أَنْبَاءُ وَخُطْبِ نَعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ
 يَخْلُطُونَ الْبَرَى مِنْهَا بِذِي الذَّنْبِ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلَاءُ
 زَعَمُوا أَنْ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ إِلَّا عَيْرَ مُؤَالٍ لَنَا ، وَأَنَا الْوَلَاءُ !

ثم راح — بعد حديث مثير عن عزة بكر — يعرض القضية من وجهة نظر
 قومه ، ويبسط وسائل الفصل فيها :

أَيُّهَا خُطَّةُ أَرَدْتُمْ فَأَدُو هَا إِلَيْنَا تَمْثِي بِهَا الْأُمَلَاءُ
 إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَا قَبِ قِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ
 أَوْ نَقَشْتُمْ فَالْنَقْشُ يَجْشِمُهُ النَّاسُ وَفِيهِ الصَّحَّاحُ وَالْإِبْرَاءُ
 أَوْ سَكَنْتُمْ عَنَا ، فَكُنَّا كَمَنْ أَغْ حَضَّ عَيْنَا ، فِي جَفْنِهَا أَقْدَاءُ
 أَوْ مَنَعْتُمْ مَا تَسْأَلُونَ ، فَهِنْ حُدُّ ثَمَوَهُ لِهَ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ ؟ !

ثم انتهى ، والفرصة مواتية ، يتيه بأعجاد بكر ومواقع لها مشهودات ، ويعد د
 مواقع أخرى هُزمت فيها تغلب ؛ متسائلًا — في تعريض جارح — عن جريرة
 بكر فيما ذاقَت تغلب من هزائم .

وما سجلَ مفاخرَ القبائل العربية في الجاهلية إلا شعراؤها ؛ ولا نالت قبيلة
 من عدوها بمثل ما كانت قتال بهذا السلاح الباتر المصمى .

ولا نظن « المسيب بن علس » كان يهذى أو يتكثر أو يبالغ ، حين قال
 في « القعقاع بن معبد بن زرارة ، سيد بني تميم » :

(١) القصة بالتفصيل ، في الأغاني : ١٧١/٩ ط السامى .

فالأهدينَ مع الرياح قصيدة منى مغلفة إلى القعقاع !
أنت الذي زعمت معد أنه أهل التكرم والندى والباع^(١)

وما كانت منزلة سيد ، مهما ترتفع ، بحيث تغنيه لو تعرض له شاعر مقتدر
بهجاء تحمل الريح أصداؤه إلى شتى أرجاء الجزيرة .

وهل أغنى سيداً مثل « أوس بن حارثة بن لأم الطائي » أنه أكرم العرب ،
عندما أغرى حساده شاعراً بهجائه ؟

يروون أن وفود العرب اجتمعت يوماً عند « النعمان بن المنذر » فدعا بحلة
فاخرة ، وقال لهم : احضروا في غد فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم .

فحضر القوم جميعاً إلا « أوس بن حارثة » ولما سئل : لم تخلقت ؟ أجاب :
« إن كان المراد غيري فأجمل بي ألا أكون حاضراً ، وإن كنت أنا المراد
فسأطلب ويعرف مكاني » .

وافتقد النعمان أوساً فيمن حضر ؛ فبعث إليه من يقول له :
— احضر آمناً بما خفت .

وحضر « أوس » فألبسه « النعمان » الحلة .

ولم ير حساده سبيلاً إلى الاشتفاء منه إلا أن يغفروا شاعراً بهجائه . وقد سألوا
« الحطيئة » أن يهجوهم وله ثلاثمائة ناقة ، فأبى وقال :

— كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي مالاً إلا من عنده ؟ وأردف منشداً :
كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتيني ؟
جادت لهم مضرُ العليا بمجدهم وأحرزوا مجدهم حيناً إلى حين
أحمت رماح بني سعد لقومهم مراعى الحمر والظلمان والعين

وبلغ الخبير « بشر بن أبي حازم » فجاء يعرض على القوم أن يدفعوا له
الإبل ويهجو « أوساً » . فلما تمت الصفقة أرسل « بشر » لسانه في « أوس » وعرض^(٢)

(١) طبقات الشعراء ص ٢٦ .

(٢) اقرأ من قصائد بشر في هجاء أوس : رقم ١ ، ٤ ، ١٧ من الديوان - دمشق ١٩٦٢ .

تحقيق الدكتور عزة حسن .

بأمه « سعدى » - بنت حصن - مفجّحاً في الهجاء ، ثم انطلق بالإبل وهو يترنم مستهيناً بوعيد أوس أن يحرقه :

فيا عجباً أبوعدنى ابن سعدى وقد أبدى مساوئه الهجاء ؟
فما كاد يبعد ، حتى أغار رجالُ أوس على الإبل فاكسحوها ، فجعل الشاعر
لا يستجير حياً من أحياء العرب على استرداد ماله إلا قيل له : قد أجرتك
إلا من أوس !

ثم وقع « بشر » بعد ذلك أسيراً في يد أوس^(١) فدخل على أمه « سعدى »
يبشرها بأسر الشاعر الذى هجاها فاستحق أن يحرقه ، فقالت :

- قبح الله قوماً يسودونك أو يقتبسون من رأيك ! لقد مات أبوك فرجوتك
لقومك عامة ، فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة . أزعمت أنك تحرق
رجلاً هجأك ؟ إذاً فمن يحوما قال فيك ؟ وإيمُ الله لو فعلتها ما استقلتها أنت
ولا قومك أبداً . .

قال : فما أصنع به ؟

فسأله : أو تطيعنى فيه ؟

أجاب : نعم . .

قالت : فإنى أرى أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه . وأفعلُ مثلكَ فإنه
لا يغسل هجاءه إلا مدمحُه !

وامتثل أوس : خرج إلى بشر ، وأنبأه بما أمرت به أمه « سعدى » فيه ،
فبهت الشاعر لحظة ثم قال :

- لا جرم والله لامدحتُ أحداً ، حتى أموت ، غيرك !

وانطلق ينشد من قصيدة له :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقتضى حاجتى ، ولقد قضاها

(١) انظر مختلف الروايات في أسره ووقوعه في يد أوس ، في الكامل لابن الأثير ٢٢٩/١ ط القاهرة . وقرأه (الشعر والشعراء لابن قتيبة) ٢٧١/١ المعارف .
وخزانة الأدب للبغدادى : ٢/ ٢٦٤ ط بولاق ، وديوان مختارات شعراء العرب لهبة الله العلوى : ٧٤ .

وما وطئ الثرى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها^(١)

والحادثة لها دلالتها على مبلغ خطر الشعر وصرامة سلاح النسان .

وشبيه بها ما يروون من قصة « الحارث بن أبي شمير الغساني » ملك الشام مع الشاعر « علقمة بن عبدة التميمي » : كان الحارث قد أسر - في موقعة له مع المنذر ابن ماء السماء - مائة رجل من بني تميم ، فيهم شأس بن عبدة . فاستشفع أخوه علقمة لقومه ، فأطلق له « الحارث » كل الأسرى من بني تميم ، ثم زاد فأجزل له العطاء موقناً أنه الرابع في الصفقة ، فإن جزاء المكرمة مدحة شاعر : يفنى المال ، ويموت الأسر والأسير ، وتبقى قصيدة علقمة في الملك الحارث الغساني :

طحا بك قلب في الحسان طروب	بُعَيْدُ الشَّباب ، عَصْرَ حَانَ مَشَيْبُ
إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتي	لِكَلِّكَلِهَا وَالْقُصَّرِينَ وَجِيبُ
إليك أبيت اللعن كان وجيبها	بِمَشْتَبِهَاتٍ ، هَوْلُهُنَّ مَهِيْبُ
فلا تحرمَنِّي نائلاً عن جناية	فإني امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة	فحقُّ لشأس من ندالك ^(٢) ذنوب

• • •

ولأنما بلغ الشعر هذه الدرجة من الأهمية والخطر لأن المجتمع العربي كان يضع الشاعر في مكانة ما بعدها مكانة ؛ فكانت وظيفته في القبيلة من أخطر وظائف الزعامة والقيادة ، وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة معنوية ؛ تبث في أبنائها روح البسالة والحمية وإباء الضيم .

كانت القبيلة في حاجة إلى مثل صوت « لقيط بن معمر الإيادي » يبعثه من الحيرة إلى قومه بني إيراد ؛ حين شاهد كسرى يعبي جيشاً لغزوهم :

يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى ، وأبرم أمرُ الناس فاجتمعوا

(١) ابن الأثير : الكامل - ٢٢٩/١ . والمبرد : الكامل - ٥٤/٣ من بغية الأمل .

وإبن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٧١/١ . وانظر ديوان بشر ، ص ٢٤ ط دمشق ١٩٦٢ .

(٢) الشعر والشعراء : ٢٢١/١ - وانظر معها باب شفاعات الشعراء في (العمدة) ٣٠/١ .

أحرار فارس أبناء الملوك ، لهم
فهم سراعٌ إليكم بين ملتقطٍ
هو الجلاء الذى تبقى مذلتة
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
وقلّدا أمركم ، لله دركم
لامترفاً إن رخاء العيش ساعدته
من الجموع جموع تزدهى القلعة
شوكاً ، وآخر يجنى الصاب والسلعة
إن طار طائركم يوماً وإن وقعا
ثم افزعوا ، قدينا الأمان من فزعا
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
ولا إذا عضّ مكروه به^(١) خشعا

وكانت فى حاجة إلى مثل « عبيد بن الأبرص الأسدى » يقود قومه بنى أسد حين بنى عليهم الملك « حجر بن عمرو الكندى » وأذلهم بأخذ سراتهم وقتلهم ضرباً بالعصى ؛ فصاح « عبيد » وهو فى الأسر ؛ يقول ناقماً على قومه عبيد العصا ذلتهم وعبوديتهم :

يا عين ما فابكى بنى أسد ، هم أهل الندامة
أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامه
مهلاً أبيت اللعن مهلاً إن فيما قلت آلمه
فى كل واد بين يثرب والقصور إلى اليامه
تطريبُ عان أو صياح تحرق زقواء هامه
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامه

وهب بنو أسد ثائرين على البغى والهوان ، وركبوا كل صعب وذلول حتى انتهوا إلى « حجر » فقتلوه^(٢) . وشاعرهم فى الطليعة ، يلهب الحماس ، ويذكى الحمية ، ويحمى وجدانهم من التأثير بوعيد « امرئ القيس بن حجر » وتهلده فيقول له ساخر^(٣) :

يا ذا الخوفنا بقتل أبيه إذلالاً وحيناً
أزعمت أنك قد قتل سراتنا؟ كذباً وميناً

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٠٠/١ ط المعارف . وأقرأ القصيدة كاملة فى «ديوان مختارات شعراء العرب لهبة الله العلوى» ط العامرة ١٣٠٦ هـ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٥/١ ط لمعارف .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ١ / ٢٢٤ .

هلاّ على حُجْرِ بنِ أ مٌ قَطَامٍ تَبْكِي ، لا علينا ؟
 إنا إذا عَضَّ الثَّقَا ف برأسِ صَعَدْنَا لَوِينَا
 نحْمِي حَقِيقَتَنَا وَبَع ضُ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا
 هلا سألْتِ جَمُوعَ كِنِ مَدَّةَ يَوْمٍ وَلَوْنَا : أَيْنَ أَيْنَا
 أَيْامَ نَضْرِبَ هَامَهُم بِبَوَاتِرٍ حَتَّى انْحَنِينَا

« نحْمِي حَقِيقَتَنَا ! »

يا لها من كلمة شاعر ، يعرف مكانه ورسالته : سيداً قائداً !
 ويا له من شعار ، يمنحنا إياه تراثنا العريق الأصيل في نضالنا اليوم لنحْمِي
 حَقِيقَتَنَا ونحقق وجودنا !

* * *

ذلك هو مكان الشاعر في قبيلته ، فهل أهدر هذا الوضع ذاتية الشاعر ؟
 هذا هو السؤال الهام الذي يجب أن نفصل فيه ، لأن الجواب عنه يحسم
 قضية طالما اختلفنا فيها ، ويحدد لنا القيمة الأصيلة لتراثنا العريق .
 والشائع فينا أن ذلك الوضع الذي عرفناه للشعر في القبيلة ، قد أهدر ذاتية
 شاعرها . وهو ما دعا كثيراً من الدارسين إلى إنكار وضع الشاعر في قبيلته بدعوى
 أنه صار مجرد بوق لها ، على حد تعبير الزميل الأستاذ « الدكتور شكرى فيصل »
 في كتابه عن « تطور الغزل » .

وهم في هذا الإنكار يصدرون عن اقتناع بمقياس نقدى هو « ذاتية الفن »
 بمعنى أن يكون الفن معبراً عن ذات صاحبه نابعاً من وجدانه . وهو مقياس
 أصيل صحيح ، لا خلاف عليه ؛ غير أن قياس شاعر القبيلة به قام على فهم
 خاطئٍ للذاتية ، وحكم سريع على ديوان شعراء القبائل . ولابد لكى يستقيم
 الميزان أن نبين وجه الخطأ هنا ، ليتاح لنا وضع تراثنا الأدبي في مكانه الصحيح
 بين الذاتية والجماعية ، على أساس من قيم فنية حرة ، خالصة من الشوائب الدخيلة
 على جوهر الفن .

والذى لا يمكن أن ننكره ، هو أن شاعر القبيلة كان ملتزمًا بأن ينطق بلسان الجماعة ، فهل يعنى هذا أنه كان مجرد بوق آلى ، لا يجد نفسه ولا ينفعل بذاته ؟ هل معناه أن المجتمع كان يلزمه بإلغاء شخصيته الفردية ؟

لو تحررنا من سيطرة الفكرة المحترمة فينا ، لوجدنا أن المعنى الحق لشاعر القبيلة هو أن ذاتيته لا تظهر منعزلة عن جماعته ، فهو فرد فى جماعة تؤهله موهبته لأن يشغل فيها وظيفة ذات خطر ، هى وظيفة الشاعر العام . مثله فى ذلك مثل الفارس يشغل وظيفته فى الذود عن الحمى ، ومثل شيخ القبيلة يشغل فيها وظيفته الأبوية بحكم ما له من مؤهلات ذاتية . ولم يقل أحد إن فارس القبيلة أو شيخها . قد أهدرت فرديته بشغله وظيفته عامة ، فلماذا نقول إن الشاعر لم تعد له ذات ، إذا نطق بلسان قومه ، وهذا هو الأصل الذى تقتضيه طبيعة الفن فى الحياة ، إذ تندب لتمثيل الجماعة وجدانيًا أرهف أفرادها حسًا وأقدرهم على التعبير ؟

لماذا لا نقول إن سلطان القبيلة على أفرادها لا يبلغ ذاتية أى فرد منهم وإما يجعلها فردية جماعية ، لا فردية متوحشة لا تعرفها الحياة فى مجتمع ؟ إن القبيلة كما كانت تلزم الفرد أن يندمج فيها ، كانت هى — من ناحية أخرى — تلتزم بمجتمعةً بهذا الفرد وتهب لنجدته إذا مسه ضيم ، وقد تدخل الحرب من أجل فرد منها ناله أذى ، ولعلها لا تسأله أن يقيم الدليل على دعواه :

لا يسألون أحاهم حين يندبهم فى الثنابات ، على ما كان برهانا
فنحن هنا أمام ذاتية جماعية تندمج فيها الفردية فى الجماعية إلى حد يصعب فيه الفصل بينهما . ولسنا نحن الذين نبتدع هذا الشعور بالذاتية الجماعية ونضيفها إلى شاعر القبيلة ، فلقد كان هذا الشاعر يحسها أصدق إحساس ويعيها أتم الوعى ، فيقول « حريث بن مخفض المازنى »^(١) :

ألم تر قوى إن دعاهم أحوهم أجابوا ، وإن يغضب على القوم يغضبوا
هم حفظوا غيبى^(٢) كما كنت حافظاً لقوى أخرى مثلها إن تغيبوا

(١) شاعر جاهل إسلامي ، وضعه ابن سلام فى الطبقة العاشرة من الجاهليين وأورد هذا النص من أشعاره فى الجاهلية . طبقات الشعراء ص ٥٥ ط بريل .

(٢) فى ط بريل : [عيبى] — تحريف يسمه السياق .

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدقٍ فأنجبوا !

وإدراكنا لهذا الموقف ، يلفتنا إلى ظواهر فنية في الشعر الجاهلي ، قلماً التفت إليها النقاد من قبل .

من تلك الظواهر :

(١) أن شاعر القبيلة قلماً يتحدث بضمير المفرد إذا افتخر ، وإنما يتحدث بضمير الجماعة التي يمثلها ويعتز بانتمائه إليها ، ويرى مجده من مجدها وعزته في عزتها .

ترى هذه الظاهرة بوضوح في شعر « عمرو بن كلثوم » شاعر تغلب و « الحارث ابن حلزة » شاعر بكر ، و « ليبد بن ربيعة » شاعر عامر ، وأضراب لهم ممن شرفوا بالحديث عن الجماعة ، وإذا قرأت معلقات عمرو والحارث وليبد ، ندر أن تعثر فيها على ضمير المفرد ، مما يشهد باندماج فردية الشاعر في جماعته ، ويؤكد إدراك الشاعر لوظيفته وفهمه لرسالته .

وهم^(١) يقولون إن « ابن كلثوم » قال معلقته غضباً لأمه ، ويرتاب المرتابون في حكاية أمه هذه مع أم عمرو بن هند ، ويحسبوننها من إضافات السمار ومنحولات الرواة ، ولست أريد أن أجادلهم في هذا . ولكني أقول إن الحكاية — على أي وضع رضيئنا لها — لا تفقد دلالتها الصادقة الآمنة على وضع اجتماعي سائد ، وفكرة عامة مسيطرة .

وكان الظن ، والحادثه فردية ، أن يتكلم عمرو عنها بصفته الشخصية . لكن المعلقة مضت وليس فيها ما يشعر بأن « عمرا » نظر إلى الحادثه نظرة فردية . وذلك لأن الوضع الاجتماعي كان يجعل الفرد للقبيلة والقبيلة للفرد ، فالمساس بكرامة « أم عمرو » مساس ببني تغلب جميعاً ، وغضبة « عمرو » هي غضبة قومه ، وكل ما يعتز به الشاعر من أمجاد مستمد من عزة قومه وأمجادهم .

وهنا قد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان شاعر القبيلة يتكلم بلسان الجماعة ، ويغلب عليه التحدث بضميرها : نحن ، وإنا ، وكنا ... فما بال « عنترة » شاعر

عبس ، قد تحدث بضمير المفرد ، وباهى بفروسيته وكرمه وعفته لا بأجناد قومه ؟
والجواب عن هذا ، أن « عنترة » كان في وضع خاص اضطره إلى أن يزكى نفسه
لدى أبيه الذي لم يلحقه بنسبه لأنه ابن أمة غير عربية ، ولدى « عبلة » التي
ما كانت لترضى بالزواج من « ابن زبيبة » ، ولدى قبيلته التي نبذته مع أبناء الإماء :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينبئك من شهد الواقعة أني أغشى الوغي وأعف عند المغم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل الرماح لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فالفخر الخاص في شعر « عنترة » له مبررات دفعت الشاعر إلى الخروج
على مألوف شعراء القبائل ، في فخرهم العام .

(ب) والاعتذار فن غير شائع عند شعراء القبائل ، لأن الشاعر إذا أخطأ
التزمت القبيلة كلها بخطئه فلم تلجئه إلى أن يقف موقف المعتذر الدليل . وقلما
يبالي شاعر القبيلة وشاية يسعى بها واش لدى ذى جاه أو سلطان ، أو يروعه
غضب غاضب من كان ، لأن القبيلة كلها من ورائه ، تحميه وتنصره وتؤازره ،
ومن هنا لم يكن ثم مجال للاعتذار بل يقول ما قال عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا ما المملك سام الناس خففاً أيينا أن نقر الذل فينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينها
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليينا

أو ما قال « الحارث بن حلزة » :

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو ، وهل لذاك بقاء
لا تخلنا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشناة تمنينا جدود وعزة قعاء

(ج) والمدح عند شاعر القبيلة لا يصدر عن انفعال بمعروف أسداه المدحوح إلى الشاعر فرداً ، إنما يفعل فيه الشاعر بفضل أسداه المدحوح إلى قومه . و « زهير بن أبي سلمى » يقدم لنا المثل المختار لشاعر القبيلة حين يمدح ، تأثراً بمكرمة عامة . لقد كان « هرم بن سنان » يجزل له العطاء فيتحاشى أن يحبيه في قومه تخرجاً من بره الشخصى ، ويقول للقوم وهرم فيهم : « عوا صباحاً إلا هرماً وخيركم استنيت » .

ولكن مكرمة « هرم بن سنان » والحارث بن عوف « هزته » حين تحملاً الديات من قتلى عبس وذبيان ، ليضعا حداً للحرب التى كادت تفنيهما . فيقول « زهير » :

سعى ساعياً « غيظ بن مرة » بعدما	تبرزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله	رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجِدتما	على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عيسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعاً	بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحنا منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معاً هُديتما	ومن يستبح كنزا من المجد يغنم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضل	على قومه يستغن عنه ويدم

• • •

ولم يحل وضع الشاعر في قبيلته بينه وبين القول في فنون من الشعر ذاتية خالصة ، كالغزل في أحبابه والوقوف بدياره ، ورناء فقيد من أهله وأحبابه ، وهجاء خصومه وأعدائه .

وهنا تعرض شبهة خيلت لدارسين منا أن شاعر القبيلة لم يجد نفسه ويحقق ذاتيته إلا في الغزل والرناء والهجاء ، لكونها متصلة بطبيعتها بالوجدان الفردى . ونقول إن القيمة الهامة لهذه الفنون الذاتية ترتفع بالمشاركة العامة التى يعبر فيها الشاعر عن مواجد وأشواق وعواطف يعانىها سائر قومه ، على اختلاف في عمق

المعاناة والقدرة على التعبير عنها .

وكان شاعر القبية يصدر عن ذاتية جماعية في هذه الفنون : فأوجع المجاء ما صرف الدَّمَّ عن المهجو فرداً إلى عشيرته كلها ؛ وأكثر الراحلين حظاً من احتفال الرائيين ، هم من كانوا للقبيلة سنداً وعماداً ، ومرأى الجاهلية لا تمل البكاء على حامى الحمى وملاذ العشيرة ومأوى الأرامل واليتامى.. ونمل نحن هذا الأسلوب ، غير ملتفتين إلى ذاتية الشاعر الجماعية التي جعلت من فجيعة الخاصة فجيعة عامة مشتركة ، يكابدها وتكابدتها معه عشيرة فقدت سيداً .

وحين ننظر في الغزل الجاهلي ، ولتكن نظرتنا عند موقف بعينه ، هو الوقوف بأطلال دور الأحبة الذي كان دأب الشاعر العربي من قديم الدهور وغابر الأحقاب . نرى الشاعر منهم قد ينفرد بالوقوف على أماكن معينة : فيقف « امرؤ القيس » بسقط اللوى بين الدخول فحومل ، ويقف « طرفة » ببرقة ثمهد ، ويقف « زهير » بمحمانة الدراج أو المثلم أو الرقمتين ، ويقف « لبيد » بمنى أو مدافع الريان ، ويقف « الحارث بن حلزة » ببرقة شماء أو الحياة والصفاح .

لكنهم على اختلاف الأماكن يعبرون عن موقف جماعى اقتضته طبيعة البيئة التي عاشوا فيها ، ويصدرون عن ذاتية متأثرة بوضع القبيلة في حلها وترحالها ، خاضعة لاحتكام هذا الوضع في مصير الحب ، فما كان لشاعر أن ينسلخ من قومه ليتبع حبيبة رحل أهلها ، وإنما كل ما يملكه هو أن يُشَبِّعَهَا بصره ويرصد حركات التحمل السريع والارتحال المبالغ ، حتى إذا غابت عن ناظره تلفت القلب ، وانثنى الشاعر إلى الربيع المهجور ، متشبهاً بمسرح ذكرياته متعلقاً بآثار الأحباب ، وقد بعدت الديار وشط المزار .

فالقيمة الهامة لهذه الظاهرة الأصبية في الشعر الجاهلي ولغيرها من فنون ذاتية خاصة ، لا تكون بتجربتها من طابع المجتمع وحصرها في نطاق الذات الفردية ، بل في أن تكون ذات دلالة جماعية مشتركة : فالشاعر هنا يبكي الديار لكل من كابد فزاق الأحبة ، ويتغنى بليلاه فيجد فيها المحبون سمات حبيباتهم وكلهن ليلى . والرائى يعبر عن مأساة عامة يتعرض لها كل حى ، ويستثير شجنه أشجان الجماعة . لكننا لم نلتفت إلى قيمة هذه الفنون الشعرية الخاصة من حيث هي معبرة عن

موقف مشترك . ينفرد الشاعر بالتعبير عنه وإن لم يشرد بمعاناته .

(٥) ومن أجل هذا كانت القبيلة تعد شعر شعرائها ملكاً عاماً لها ، وتراثاً قومياً لأبنائها . وهو ما يفسر لنا الظاهرة اللافتة في رواية الشعر الجاهلي حيث يكتفى الرواة أحياناً كثيرة بنسبة الشعر إلى القبيلة التي ينتمى إليها الشاعر فيقال : قال الهذلي ، وقال الطائي . وقال العذري ، وقال أخو بكر كما يُفسر لنا اتجاه حركة الجمع والتدوين للشعر الجاهلي ، في مراحلها المبكرة ، إلى جمع دواوين شعر القبائل ، لكل قبيلة ديوانها الخاص الذي ينقله الرواة من أبنائها ، على نحو ما ترى في ديوان شعرا الهذليين .

٥٥ ٥٤ ٥٣

على أن فهما لهذه الذاتية الجماعية ، لن يتم إلا إذا نظرنا في شعر بيتين آخرين من بيتات الشعر الجاهلي ، خرج فيهما الشاعر على سلطان القبيلة ، وبدا لبعض الدارسين والنقاد أنه بهذا التحرر قد وجد نفسه واسترد ذاتيته ، وأخلص لفنه .

وأولاهما : بيئة الشعراء الصعاليك .

والثانية : بيئة شعراء الملوك والأمراء في بلاط المناذرة والغساسنة .

فلنتنظر في شعر كل بيئة من هاتين ، لنرى هل يصدق ما زعمه النقاد من جَوَرِ الجماعية على ذاتية الشاعر ؟

الشعراء الصعاليك

أهدر ابن سلام الاعتراف بهم في طبقاته .
ويقول تراثنا : إن شعرهم يمثل الفطرة العربية
ويعبر عن معاناة وجدانية لمحنة الغربة والتشرد ،
ويعكس صورة مثيرة من واقع حياتهم
المحرومة من أنس الجماعة .

الشعراء الصعاليك :

هم أولئك الذين حاولوا فعلاً أن يتحرروا من سلطان قبائلهم . وخلعوا منها راضين أو كارهين . وقد ألفنا في دراسة شعرهم أن نراه ممثلاً لانطلاق ذاتية الشاعر ، مسجلاً صدى نضاله عن هذه الذاتية . ومظهر تحرر من القيود التي تكبلها .

وفاتنا - أو فات كثيراً منا - أن نلمح وراء هذا الذي يبدو في ظاهره انطلاقاً وتحرراً ، تلك الروابط النفسية التي كانت تشدهم إلى الأهل والعشيرة ، وأن نحس تلك المראה التي تفيض بها مشاعرهم وهم يهيمنون على وجوههم في الفلوات ؛ أحراراً فيما يبدو . مشردين غرباء في الواقع .

فاتنا أن نلتفت إلى ما ترك الخلع في وجدانهم من أثر عميق نافذ ، سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية وقسوة الحرمان من أنس الأهل والدار . بل إن سلوكهم نفسه كان يطوى وراء الاستهانة بالحياة والانطلاق في الفضاء العريض والمغامرة الفتاكة المثيرة ، سخرية مريرة بالحرية الفردية ، وشعوراً عميقاً بالتمزق والتشرد والضياح .

وتراثهم من الشعر شاهد لدينا على هذا ، مشحون بالأسى والشجن .
فن وراء بضعة عشر قرناً ، نصغى إلى صدى باقٍ من قول « تأبط شراً » :

يا عيدُ مالك من شوق وإبراق ومَرَّ طيفٌ على الأهوال طرَّاق
يسرى على الأيْنِ والحَيَّاتِ محتفياً نفسى فداؤك من سارٍ على ساق

.....

عاذلتى ، إن بعض اللوم معنفة وهل متاعٌ وإن أبقيته باقٍ
إني زعيم لأن لم تتركوا عذلى أن يسألَ الحى عنى أهلَ آفاقٍ
أن يسألَ الحى عنى أهلَ معرفة فلا يخبرهمُ عن « ثابت » لاقٍ
لتقر عينٌ على السن من ندمٍ إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقى^(١)

(١) المفضل الضبي : المفضليات ٣/١ ط التجارية . ولها قصة في خزانة الأدب للبندادى ٢/١٦

أو قوله (١) :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بمومة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
إذا حاص عينه كرى النوم لم يزل له كالى من قلب شيخان فأتك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

فيلقانا منه فى النص الأول ، شاعريئن من معاناة شوق يعتاده وسهد يورقه ، ومعاودة طيف ، فداؤه النفس ، يطرقه ليلا ساريًا على الأهوال ، معيداً له رؤى الأمس الذى ولى وراح ، ونازعاً به إلى ماضيه - والشملى فيه مجتمع - فيعزى نفسه ، تحت وطأة المعاناة ، بأن كل حى إلى فناء ، وكل متاع إلى زوال . ويهتف بعاذلته ، ولعلها القبيلة ، أن تخفف من عنف لومها . وينذرهما بما سوف تجرع من غصص الندم ، لو فقدت بفقد كرم الخلق أى النفس ، لم يحتمل الزجر والتأنيب ، فضى بعيداً إلى حيث لا يهتدى إليه عراف ؛ ولا ينبئ عن مكانه إنسان .

ويلقانا منه فى النص الثانى ؛ غريبٌ وحيد قليل التشكى لأنه لا يجد من يفضى إليه بشكواه ؛ مشرد : يظل بمومة ويمسى بغيرها ؛ مغامر فتاك ، يركب ظهور المهالك دون ملطف ؛ مسهد ؛ إذا أخذته سينة من الكرى حاصت عينيه ؛بقى قلبه الجسور يقظاً يحرسه ؛ متوحش ، نفور من الناس يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى فى مسراه المرهوب بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك .

ونصنى معه إلى صدى من صوت « الشنفرى الأزدي » إذ يقول (٢) :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت
بعينى ما أمست ، فباتت ، فأصبحت فقصت أموراً ؛ واستقلت فولت
أمشى على الأرض التى لن تضرنى لأنكى قوماً أو أصادف حصى
إذا ما أتنى ميتى لم أبالها ولم تدّر عمامى الدموع وخالى

(١) الأمل للقال : ١٣٨/٢ ط دار الكتب - والقصيدة من مختارات المشرق « ليال » من شعر تأبط شرا ، فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية .
(٢) المفضليات : ٤١ ط التجارية .

أو قوله :

ولا تقبروني إن قبري محرم عليكم ، ولكن أبشري أمّ عامر
إذا احتملوا رأسي ، وفي الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثمّ سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرفي سجييس الليالي مبسلاً بالجرائر

أو قوله^(١) :

وإلف هموم ما تزال تعوده عياداً كحُمى الربيع أو هي أثقل
فيلقانا منه شاعر مستهين بالحياة ، يضرب في الأرض الواسعة لا يبالي
أين ومتى تأتيه منيته .

وفيم المبالاة ولن تذرف عليه الدمع عمة أو خالة ، وماذا يعنيه من قبر لا يزار ؟
شاعر شريد ، إلف هموم ما تزال تعوده كالحمى أو هي أثقل ، كلما زادها
عنه ثابت إليه . وأنته من فوقه ومن تحته !

* * *

عند هؤلاء ، لم يكن الشعر تجارة قط ، وإنما كان متنفساً لشجنهم ،
وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة ، وتعبيراً عن وجدان مثقل بالهموم ، وصدى
لمغامراتهم المستهينة بحياة مضيعة ، تنتهي بموت في متاهة القلاية بعيداً عن الأهل
والأحباب .

ولو شاءوا أن يتجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشترين . ولكن فطرتهم
العربية الحرة ، أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ووجدانهم في
سوق البيع والشراء ، وأن ينزلوا عن حريرتهم التي لم تحتل ضغط عُرْف الأهل
وتقاليد العشيرة ، والتي اشتروها بغالى الثمن ، من غربة وحرمان وتشرد وضياح .
فأين عند من رأوا الشعر تجارة ، موضع قصيدة الشنفرى^(٢) :

(١) هبة الله العلوى : ديوان مختارات شعراء العرب - ٢٥ .

(٢) اقرأ القصيدة كاملة ، في (ديوان مختارات شعراء العرب) لهبة الله العلوى ص ٣١

ط ٢٨ العامة .

وقد نشر الزميل للمراقى ، الدكتور محمد بديع شريف ، نص قصيدة الشنفرى محققاً ، مع دراسة لها وافية في

كتابه : « نشيد الصحراء ، أو لامية العرب » .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
 فقد حُمت الحاجات والليل مقمر
 وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
 أديم مطال الجوع حتى أميته
 وأستف ثرب الأرض كي لا يرى له
 ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب
 ولكن نفساً حرة لا تقيم بي
 شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت
 فإني إلى أهل سواكم لأميل
 وشدت لطيات ، مطايا وأرخل
 وفيها لمن خاف القيل متحول
 وأصرف عنه الذكر صفحاً فأذهل
 على من الطول امرؤ متطول
 يعاش به ، إلا لدى ، ومأكل
 على الضيم إلا ريثما أتحول
 وللصبر إن ينفع الشكوى أجمل

لم يجد « ابن سلام » مكاناً في طبقاته ، للشنفرى ، ولا لغير الشنفرى ،
 من هؤلاء الذين يمثل شعرهم نقاء الفطرة العربية ، وهيامها بالحرية ، ويعبر عن
 معاناة وجدانية ، ويعكس صورة أمينة لواقع حياتهم في صميم الجزيرة .

شعراء البلاط

وضع النقاد « النابغة والأعشى » في الطبقة الأولى لفحول الشعراء واحتفلوا ببضاعتها ، وبضاعة أمثالهما من المتكسبين بالشعر . ويقول تراثنا : إن وضعهم ، أجراء مسخرين ، أهدر ذاتيتهم وصادر حريرتهم الفنية وألغى كرامتهم التي لا بد منها لكل أديب حر

وندع الشعراء الصعاليك في غربتهم وتشردهم وتوزعهم العاطفي ووحدهم النفسية ، وتهاونهم بالحياة المبعّدة عن الأهل والأحباب ، لننظر في بيئة أخرى لشعراء من الجاهلية تحرروا كذلك من قيود القبيلة باختيارهم ، ومارسوا صنعتهم لحسابهم الخاص مستقلين عن الجماعة ، لدى الأمراء من آل المنذر وآل غسان . فأين كان موضع هؤلاء الشعراء وماذا كانت وظيفتهم ؟ وهل وجدوا ذوا نهم بهذا الاستقلال عن القبيلة ؟

وإمارتا الغساسنة والمناذرة قامتا على أطراف الجزيرة ، مما يلي حدود الروم والفرس ؛ وكانت الإماراتان تستظلمان بالحماية الأجنبية ، نظير قيامهما بحراسة الحدود من غارات العرب ، والتأمين التجاري لبضاعة الدولتين الحاميتين . وقد اقتضى هذا الوضع ، تأثر المجتمع العربي في الإماراتين كليهما ، بالأوضاع السائدة في بلاد الفرس والروم ، وكان بلاط الأمراء في الحيرة وغسان ، يحاول أن يشبه ببلاط الأكاسرة والأباطرة .

واحتاج الأمراء إلى الشعراء ، دعاءً ومؤيدين . وفعلت جاذبية السلطان فعلها ، فأغرت عدداً من الشعراء بالنزوح إلى القصر ، لا عن إيمان بالوضع ، ولا عن استجابة لحاجة عامة إلى تأييده ، ولكن طلباً للمال والعطاء وترف العيش . وكان الشعر بضاعتهم . والقبيلة لا تدفع لشاعرها ثمناً غير شرف السيادة والقيادة . أما أمراء الحيرة وغسان ، فيدفعون المال بغير حساب . .

وفي هؤلاء تصدق القولة القديمة « الشعر تجارة العرب »^(١) وكانت تجارة رابحة جعلت مثل « النابغة » يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة وأوانيها - كما يقال - وجعلت « الأعشى » يحمل بضاعته ويسير بها في الآفاق متجراً ، لا يبالي من يعرضها عليه^(٢) ؛ حتى بلغ به الأمر أن عرضها على أعجمي لا يفقه من العربية شيئاً . وحكايته مع « كسرى » معروفة ، يوم سعى إليه منشداً قصيدته :
أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من شوق وما بي تحرق

(٢) ابن رشيقي : المدة ١ / ٤٩ .

(١) ابن رشيقي : المدة ١ / ٣١ .

فلما ترجموا لكسرى ، أنه ذكر أرقه من غير سقم ولا عشق ، قال ما ترجمته :
إذا كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص^(١)!

فلإلام صار الشعر المرتزق وأهله ؟

الواقع الذى يسجله تراثهم الأدبى ، أن الشاعر منهم إذا كان قد تخلص من تبعيته للقبيلة ، وتخلّى عن مهمة التعبير عنها وشرف الكلام باسمها ، فإنه ارتبط بتبعية أخرى قاسية باهظة ، وانتقل إلى بيئة مغايرة لمجتمع القبيلة من حيث نظرته إلى الشاعر وفهمها لوظيفة الشعر .

إنه فى هذه البيئة تابع للأمير وفرد فى حاشيته ، له وظيفته المحددة التى تفرض عليه تمجيد أفعال سيده والتغنى بسجاياه وتقديس كل تصرفاته ، والارتفاع به إلى سماء لا تطاولها سماء :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ارتفعت لم يبد منها كوكب

وأنت ربيع بنعش الناس سيبه * * * وسيف أعيرته المنية قاطع

وقلما يصدر الشاعر فى مدحه عن إيمان خالص بالممدوح ، وإعجاب صادق به . أو ، إن كان ، فهو إعجاب بما يناله من بر الأمير وعطائه ، فيقدر ما يسخو فى العطاء ، يسخو الشاعر فى المدح متأثراً بهذه المنحة الفردية ، لا بمكرمة عامة كتلك التى تهز شاعر القبيلة وتستثير أريحيته الفنية .

و « النابغة الذبياني » يمثل لنا هذا الصنف من الشعراء أصدق تمثيل ، وشعره فى « النعمان بن المنذر » جدير بأن يفصل فى قضية « ذاتية الفن » التى زعم زاعمون أنها أهدرت فى القبيلة ، وجدير كذلك بأن يجلو لنا الفرق البعيد بين وظيفة الشعر فى المجتمع العربى الأصيل : قيادة وسيادة ؛ ووظيفته حرقة وارتزاقاً ودعاية ، فى بيئة الأمراء من الغساسنة والمناذرة المتأثرة سياسياً واجتماعياً بتيارات أجنبية وافدة من بلاد الروم والفرس .

ومدائح النابغة فى النعمان صريحة الدلالة على انفعاله به بقدر ماسخا فى عطائه^(٢) :

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٥٨/١ ط المعارف .

(٢) انظر القصائد فى ديوان النابغة ، وأكثرها فى المختار من شعره فى كتب الأدب .

وإن تلادى إن ذكرتُ وشكَّتِي ومهرى ، وما ضَمَّتْ إلى الأناملُ
جباؤك ، والعيس العتاق كأنها هجانُ المهى ، تُحدَى عليها الرحائلُ
فإن تحى لا أمل حياتي وإن تمت فما في حياةٍ بعد موتك طائل

* * *

فلن أذكر النعمان إلا بصالح فإن له عندي يدياً وأنعماً

* * *

وبينا نجد للشاعر في القبيلة أعز مكانة، ونراها تحتفل بظهوره وتعدّه ثروة
قومية لها ، نجد الشاعر في البلاط لا يعدو أن يكون تابعاً أجيراً . وربما عانى
من الخضوع والهوان ما يهدر إنسانيته إلى حد الإقرار بالعبودية . فهذا النابغة
على وقار سنه ومقدرته الشعرية التي كانت جديرة بأن تجعله سيداً شريفاً مهيباً ،
غضب عليه سيده النعمان فتضيق الدنيا على سعتها في وجهه ، ولا يجد مفرّاً منه إلا
إليه ، ولا حيلة معه إلا أن يعتذر إليه في ذلة وضراعة ، ليمنّ عليه بالحياة
ويرحمه من محنة النبذ والضياح :

أغيرك معقلاً أبغى وحصناً وأعيتني المعازل والحصون
وجئتك عارياً خليفاً ثيابي على خوفٍ تُظن بي الظنون

* * *

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطليّ به القار أجرب
فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته وإن لك ذا عتبتي فثلك يعتب

* * *

فإن كنت لا ذوالضعف عنى مكذبٌ ولا حلقى على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
أنوعيدُ عبداً لم يخنك أمانة ويترك عبداً ظالم وهو ظالم

* * *

فإن كنت امرأً قد سوت ظناً بعدك والخطوب إلى تبال

فأرسل في بني ذبيان فاسأل ولا تعجل إلى عن السؤال
فما أغفلت شكرك فانتصحنى وكيف ومن عطائك جلّ مالى
ولو كَفَّيَ اليمين بفتك خونا لأفردت اليمين عن الشمال
وهم يقولون في سبب غضب النعمان على شاعره الأجير ، أنه خانته فدح
بني غسان الذين يتنافسون المناذرة على الجاه والإمارة .

وانتهز حساد « النابغة » هذه الفرصة ، فوشوا به لدى « النعمان » وأوغروا صدره
عليه . وفي اعتذاريات « النابغة » ما يؤيد هذا ، حيث يقول في قصيدته البائية :
أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى هراساً به يعلى فراشى ويقشّب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيهم أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب
وهكذا يخضع الشاعر فى البلاط ، لمصادرة وجدانية باهظة العبء .

فحين تتصل أسبابه بالأمر ، لا يعود يملك شيئاً من أمر نفسه التى باعها
لسيده ، وليس من حقه أن يتصرف فى بضاعته إلا بما يرضى هذا السيد . وما نرى
« النعمان » إلا على حق ، حين أنكر على النابغة أن يمدح الغساسنة أو سواهم
بعد أن باع نفسه وفنه لسيده وقبض ثمن البضاعة !
ولم يكن النابغة يمدح النعمان متفعلاً بكريم سجاياه ، بل كان انفعاله بسخى
عطاياه . وهم يروون للنابغة هجاء مقدعاً فيه ، حين اتصلت أسبابه بالغساسنة^(١) .

* * *

هكذا نرى أن ذاتية الشاعر ، لا يهدرها اندماجه فى القبيلة ، ولا تخضع
لمصادرة وجدانية حين يحظى بشرف التعبير عن قومه ، وإنما يهدرها حقاً أن
ينسلخ من الجماعة ، ويبيع كرامته ولسانه لقرء يدفع الثمن ، ويستعبر وجدان
مالكه ليقول ما يرضيه . فيغضب معه ويرضى . . .

والآن نعرض تراثنا ، بعد فهمه فهماً محرراً ، على المقاييس التقديرية والقيم الأدبية التي وضعها للشعر الجاهلي قدامى النقاد ممن تلقوا هذا التراث وتذوقوه بمزاج بيتاتهم ، وقوموه بموازين عصورهم .

فماذا نرى ؟

(١) لقد احتفوا أيما احتفال ببضاعة المرتزقة من الشعراء ، وحرصوا أشد الحرص على رواية الشعر الذي قيل في بلاط المناذرة والغساسنة . ولم يكتفوا بأن يجعلوا « المدح » أهم أغراض الشعر ، بل زادوا فجعلوا المدح غاية القصيدة العربية بوجه عام ، فينقل « ابن قتيبة » مذهب أصحاب عمود الشعر الجاهلي :

« إن مُقَصِّدَ القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ونخاطب الربيع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين . . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرد الصباية والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، وليستدعى إصغاء الأسماع . . . »

« فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقبَّ بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرَّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه أجب على صاحبه حق الرجاء والتأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكازة في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسباح ، وفضَّله على الأشباه ، وصغَّر في قدره الجيزيل » (١) .

ثم عقب « ابن قتيبة » على هذا بقوله : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر » (١) . ويشهد تراثنا أن المدح لم يكن غاية القصيدة وعمودها ، إلا عند المتكسبين بالشعر : فطرفة وقف بأطلال خولة ، وبكى ووصف راحلته ، ثم لم يتخذ هذا كله حيلة للعتاء ، ولم يقصد به إلى هز ممدوحٍ للسباح وبعثه على المكافأة . وكذلك فعل الحارث بن حلزة ، وقف بالأطلال وبكى إيدان « أسماء » بالبين ، ثم

(١) الشعر والشعراء : ١ / ٧٥ ط المعارف .

انطلق يعرض قضية قومه ، ويفاخر بأجسادها ، وينذر « ابن هند » بغضبها إن جار في حكمه بينها وبين تغلب !

وعمر بن كلثوم ، أين وكيف ، مدح وهزّ للساح ؟
بل أين ديوان شعراء القبائل ، من هذا العمود الذي قرره القوم للقصيد العربية ؟
واليوم نقرأ في الكتب المدرسية هذا النسق المقرر للقصيد العربية في الجاهلية ، ونكرره مقلدين دون أن نلتفت إلى تراثنا !

ولم يجهل النقاد من السلف أن المجتمع العربي الحر كان يأنف من التكسب بالشعر ويُسقط من يجعل الشعر متجراً^(١) لكنهم في حديثهم عن « التكسب بالشعر والأنفة منه » قرروا أن مدح الملوك مفخرة . وأن الذل لهم معفو وأن عطاءهم شرف . وإنما العار « أن يأخذ الشاعر ممن دون الملوك . كما فعل الخطيئة قبح الله همته الساقطة »^(٢) .

وهو حكم نقدي أخذوه من إمارتي الحيرة وغان . وتقليد سبق إليه « النابغة » في قوله :

تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من ربّ طريقي وتالدى
وكنّتُ امرأ لا أمدح الدهر سوقةً فلستُ على خيرٍ أتاك بحاسد

وقد أخذها عليه النقاد ، لا لكونه آثر النعمان بمدحه ، والمجتمع العربي يريد لشاعره أن يمدح عشيرته ويفخر بأجسادها ، ولا لأنه جعل النعمان « ربا » وكل من عداه سوقة . ولكن « لأنه امتن على ربّه الملك بمدحه . جعل هذا المدح خيراً سبق إليه ؛ لا يحسده عليه »^(٣) .

وليس لشاعر عندهم أن يمتن على الملك بمدحه ، وإنما قصاراه أن يعتز بمدح الملوك ويفخر ، طبقاً لقواعد قرروها فيما يجوز للشاعر أن يمدح به الملك ، ووضعوا لها النماذج المختارة^(٤) .

ونوهوا — في باب التكسب بالشعر والأنفة منه — بمن سار على التقليد الذي سبق إليه « النابغة » في الافتخار بشرف مدح الملوك ، والأنفة من المدح

(٢) ابن رشيقي : العمدة ٥١/١ .

(١) ابن رشيقي : العمدة ١٢١/١ .

(٤) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٢٣ .

(٣) الشعر والشعراء : ٥٢/١ .

إلا « لصاحب منبر وسرير » والمباهاة بأخذ العطاء « من كفّ خليفة ووزير »^(١)
 (ب) وقرروا أن الطمع أقوى مثيرات الشعر ودوافعه^(٢) ، ثم لما نظروا في تراث
 العربية من الشعر الجاهلي ، لم يجدوا في « المراثية » مثلاً وهي تشغل مكاناً هاماً
 في تراثنا ، مصداق قولتهم في الطمع ، وإذ ذاك حكموا بأن « الرثاء أصعب الشعر
 لأنه لا يصدر عن رغبة أو رهبة »^(٣) .

ولم يلتفتوا في الرثاء إلى غير الأبيات التي تذكر سجايا الفقيد . فأدخلوا
 الرثاء في المدح ! لا فرق بينهما عندهم إلا في « أن المدح في الأحياء والرثاء مدح
 للموتى ! »

وما تزال هذه القيمة في جونا الأدبي ، لا أذكر أن دارساً حاول تغييرها
 والكشف عما فيها من خطأ فني كبير .

وكان تراث الصعاليك بين أيديهم ، فلما لم ينطبق عليه مقياسهم ، أهدر
 « ابن سلام » الاعتراف بهم ، وما نزال نحن نخضع لذلك الاحتكام فنحتفل
 باعتذاريات النابغة ، ونلقن أبناءنا قصيدة الأعشى التي قالها في « المخلوق » نظير
 أكلة دسمة ! ولم نستبدل بهذه القصيدة لامية العرب للشنفرى مثلاً ، أو عينية
 « لقيط بن يعمر الإيادي » .

(ج) وتوجوا « النابغة الذبياني » أميراً للشعر الجاهلي إذا اعتذر ، وما يزال
 هذا موضعه فيما لم يتغير ، وإنهم لينقلون إلينا ما يشهد بأن عرب الجاهلية الأصلاء
 كان لهم في النابغة واعتذارياته رأى غير ذاك الرأى : أنكرت « بنو ذبيان » على
 الشاعر الشيخ أن يبيع كرامته وحرية للنعمان ، ورأت في خشيته إياه عاراً أي عار ،
 فذلك حيث يقول النابغة :

وعيرتني « بنو ذبيان » خشيتَه وهل علىّ بأن أخشاك من عارٍ ؟
 وظلت الضعة تلاحق اسمه إلى ما بعد الجاهلية ، فيقال إن « ابن عباس »
 سأل « الحطيئة » : من أشعر الناس ؟ قال :

(١) ابن رثيق : العدة ٥٢/١ . (٢) الشعر والشعراء : ٧٩/١

(٣) ابن رثيق : العدة ٢٥/٢/١ وانظر (المراثية في الشعر الجاهلي) للدراسة ، في العدد الأول من

حولية كلية البنات بجامعة عين شمس .

— من الماضين أم من الباقين ؟

قال ابن عباس : من الماضين .

فأجاب الخطيئة : « الذى يقول ^(١) » :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرُّه ومن لا يتق الشتم يُشْتَم
وما دونه الذى يقول ^(٢) :

ولست بمستبق أخاً لا تلمُّه على شعَثٍ أى الرجال المهذب ؟

ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولاً — يعنى نفسه — ! والله يا بجن عم
رسول الله ، لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين ^(٣) .

وبحكم الخطيئة على النابغة . نفهم قول « ابن قتيبة » فيه : « وكان ^(٤) النابغة
شريفاً فغضض منه الشعر » .

ووضعوا « الأعشى » فى الطبقة الأولى لفحول الجاهليين ، وكان مما وضعوا فى
كفة ميزانه ، حين قدموه على طرفه ، أن « الأعشى أمدح وأهجى » ^(٥) .

ولا أظنه تزحزح إلى اليوم عن موضعه ذاك فى (طبقات ابن سلام) على حين
تأخر « عمرو بن كلثوم » شاعرتغلب ، و « الحارث بن حازم » شاعر بكر ، إلى
الطبقة السادسة ، فى ميزان النقد التجارى .

أما « طرفه » و « عبيد » فاستكثر عليهما « ابن سلام » مكانهما فى الطبقة
الرابعة عنده ، خضوعاً لمقياس الكم لا الكيف ، بل إنه اتخذ من شهرتهما مع
قلة شعرهما بأيدى الرواة ، دليلاً على ضياع شعر كثير . قال : « ومما يدل على
ذهاب الشعر قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذى صح لهما
قصائد بقدر عشر . وإن لم يكن لهما غيرهن ؛ فليس موضعهما حيث وُضعا من
الشهرة والتقدمة » ^(٦) .

ولم يخطر بباله أن يكون للمستوى الفنى ما يشفع لطرفة وعبيد ، فى تلك
الطبقة الرابعة !

(٢) للنابغة من بائنه فى الاعتذار .

(٤) الشعر والشعراء : ١ / ١٦٤ .

(٦) طبقات الشعراء : ١٠ ط بريل .

(١) لزهير من معلقته .

(٣) النعمدة : ١ / ٦٠ .

(٥) طبقات الشعراء : ٤ / ٢ .

و « أبو عبيدة » لم يرضه أن يبقى « طرفة » في الطبقة الرابعة ، بل أخره إلى الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم والحارث ! رغم اعترافه بأن « طرفة » أجود الشعراء واحدة . قال : « طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور . ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وسويد بن أبي كاهل »^(١) .

ولمّا أخر طرفة عندهم : « قلة شعره ، وقصوره في المدح والهجاء »^(٢) . وهو قصور لم يغتفره قوم رأوا الشعر تجارة ، وجعلوا المدح عمود القصيدة وغايتها .

ولم يكن هذا هو رأى أصحاب الفن القوي في طرفة ، فلقد سئل « لبید ابن ربيعة : من أشعر العرب ؟ فأجاب : الملك الضليل . قيل له : ثم من ؟ قال : ابن العشرين — يغنى طرفة »^(٣) .

وأبو العلاء : أديب العربية الأكبر ، يقول لطرفة في (رسالة الغفران) على لسان « ابن القارح » :

« ولو لم يكن لك أثر في الدار العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال لكنت أبقيت أثراً حسناً »^(٤) .

وكذلك لم يكن رأى قدامى الشعراء في « عبيد » رأى ابن سلام الذي استكثر عليه الطبقة الرابعة . ففي أخبار الخطيئة : أن سعيد بن العاص ، جلس مع حُدّائه وأصحاب سمره ، وهو وال على المدينة ، فحاضوا في حديث العرب وأشعارها ، والخطيئة يسمع من مكانه بطرف المجلس ؛ فقال والقوم لا يعرفونه : ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب . فسأله سعيد : فهل عندك من ذلك علم ؟ أجاب : نعم . قال : فن أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول :

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ١٤٢ . ط الحلبي .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢١٩ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١ / ١٤٢ والعمدة لابن رشيقي : ١ / ٦٠ .

(٤) رسالة الغفران ، تحقيق الدراسة : ص ٣٣٨ ط رابعة ، الدخاثر .

لا أعدُّ الإقتارَ عدماً ولكن فقدُ مَنْ قد رُزِئته الإعدامُ

وأنشد القصيدة حتى أتى عليها ، وهى لأبى دؤاد الإيادى .

قال سعيد : ثم من ؟ قال الذى يقول .

أفلح بما شئت فقد يدركُ بالضعف وقد يُخدع الأريبُ

وأنشدها حتى أتى عليها ^(١) ، وهى لعبيد بن الأبرص الأسدى ه جعله

الخطيئة — وهو مَنْ هو خبرة بالشعر ومعرفة بأقدار رجاله — أشعر الناس ، بعد

أبى دؤاد الإيادى . ثم يأتى نقاد القرن الثالث فيؤخرونه إلى الطبقة الرابعة ، بل

يستكبرونها عليه ! !

و « علقمة بن عبدة » أخروه إلى الطبقة الرابعة ، فاخروا معهم ، ولما لنقرأ

قول « ابن سلام » فيه ^(٢) :

« ولابن عبدة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر ، الأولى :

• ذهبت من الهجران فى كلِّ مذهبٍ •

والثانية • طحا بكَّ قلبٌ فى الحسان طروبُ •

والثالثة • هل ما علمت وما استودعت مكتومُ •

ولم يشفع له هذا التفوق ، حين أعوزته الكثرة ، وأعوزه المدح والهجاء . . .

فن منا ، فكر فى دراسة هذه الثلاث الروائع الجياذ التى لا يفوقهن شعر !

ووضع « ابن سلام » لبید بن ربيعة ، فى الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية .

ولانه ليعرف أن لبیداً « كان فى الجاهلية خير شاعر لقومه . يمدحهم ويرثيهم

ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم » ^(٣) .

ولكن ، ماذا يجدى عليه كل هذا ، وقد كان كريماً على نفسه ، عفَّ

الشعر ، لا يتجر به ولا يرتزق ؟

ماذا يجديه ، أن يكون خير شاعر لقومه ، إذا كان الطمع لا يحركه ، بل

لقد بلغ من أنفته أن كره لابنته عثرة لسانِ رآها جارحة لكرامتها وكرامته ؟

(١) ديوان مختارات شعراء العرب : ١٤٦ . والشعر والشعراء : ٣٢٥/١ معارف .

(٢) طبقات الشعراء : ٣١ . (٣) طبقات الشعراء : ٣٠ .

حدثوا أنه كان قد آلى على نفسه في الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن . . . وظل على عهده بعد إسلامه ؛ فحدث أن خطب « الوليد ابن عقبة » الناس بالكوفة يوم صبا ، قال : « إن أخاكم لبيداً آلى ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه » . « ونزل فبعث إليه بمائة بكرة ، مع أبيات من الشعر . وانفعل لبيد بهذا الصنيع ، أريد به أن يعان على مروءة ، فقال لابنته : أجيبيه ، فقد رأيتني وما أعيأ بجواب شاعر .

فقال تجيب الوليد^(١) :

إذا هبت رياحُ أبي عقيلٍ دعونا عند هبَّتِها الوليدا
أشمَّ الأنفَ أصيدَ عبشياً أعان على مروءته لبيدا
أبا وهبٍ ، جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعدُّ إن الكريم له معاد وظنى يا ابنَ أروى أن تعودا

وعرضتها على أبيها ، فقال لها : أحسنت لولا أنك استطعتِ^(٢) «

فما مبلغ عنايتنا اليوم بذلك الشاعر ؟

لما يزل حيث وضعه الذين لم يسيغوا أن يهلك المال على مروءته ، وقد رأوا الشعراء يبيعون مروءتهم بالمال .

ولم يهضموا أن يكون شاعر قومه ، لأن أمراء الشعر في عصرهم ، هم شعراء الأمراء .

* * *

وماذا عن شعر الهذليين الذين قال فيهم « حسان بن ثابت » : « أشعر الناس حيا هذيل ؟ » شعر البلاط في الحيرة وغسان ، أحمل شعر الهذليين عند قدامى النقاد ، فلم يظفر تراث (الحلى الشاعر) بدارسٍ منهم ، يلتمس فيه ما يمكن

(١) أبو عقيل : كنية لبيد .

(٢) طبقات ابن سلام : ٢٩ . و (الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢٧٦/١ معارف) .

أن يهدينا إلى خصائص فنية وقيم أدبية ، في تلك اظاهرة الشعرية اللافتة التي
أفلتت من الضياع ؟

• • •

لو تحررنا من احتكام تلك المقاييس النقدية ؛ وصح فهمنا لتراثنا ، لكنا
جديرين بأن نضع منه النماذج الحية الكريمة لمن كانوا في المجتمع العربي سادة
وقادة ، بين أيدي أبنائنا يغذى وجدانهم ، بدلاً من ذلك الصنف الذي راج
في سوق المذلة والتسول والتفاق .

ولعكفنا على تراث شعراء القبائل ، والصعاليك ؛ نلتمس منه ما يجلو الذاتية
الجماعية ، ويريحنا من الحصومة النقدية الحادة ، التي مللنا سملعها بين ما يسمونه
« الفن للفن » أو « الفن للمجتمع » كأنما كانت فنية الفن تمنع جماعيته ، وجماعيته
تهدر ذاتيته ! ! .

ولا تنسج الأفق أمامنا رجباً طليقاً ، بلحديد من الدراسات ، غير تلك التي
ملها الزمن لطول ما سمع عن الأعشى صناجة العرب ، والنابعة أمير الشعراء
إذا رهب . . .